



العقل العربي

63

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الخامس عشر

مسألة الركود العربي

6. العدو مثلاً أعلى

إن مواجهة العرب لإسرائيل وهزيمتهم أمامها ثلاث مرات خلال عشرين عاماً (1948، 1956، 1967) أجبرتهم على تبني نظرة جديدة أكثر صراحة وتصلباً وتدقيقاً لمشكلة الركود. وبرزت حاجة للإجابة عن السؤال المؤلم: كيف استطاعت دولة صغيرة مثل إسرائيل أن تحطم جيوش عدة دول عربية تتفوق عليها بالعدد والعدة. لا لمرة واحدة وإنما لثلاث مرات متتالية؟ وأبرز البحث عن الإجابة سيلاً مهماً من الكتب والنشرات والمقالات التي بدأت فور نهاية حرب 1948 ولم تتوقف منذ ذلك الحين. ومعظم هذه الكتابات تناقش ضعف العرب، وتخلفهم وأسبابه، وتدخل في تحليل مفصل للجوانب التي يلاحظ تخلف العرب فيها: عجز العرب عن تحقيق الوحدة حتى عندما يواجههم عدو شديد المراس، عدم كفاءتهم في محاولة حل مشكلاتهم الاجتماعية، ركودهم الثقافي، وما أشبه. وثمة إجماع عام على أن جوانب عديدة من حياة العرب قد وصلت إلى مرحلة حرجة وأن جزءاً كبيراً منها ينبغي أن يتعرض إلى تغيير جذري. وبالرغم من ذلك، توجد اختلافات في طرق المعالجة ومستوى التشدد فيها. وذلك وفق التوجه الأيديولوجي للمنتقدين. وفي تحليل دقيق للكتابات العربية التي تناولت أسباب ودروس هزيمة 1967، يجد حرقبي في كتابه (دروس العرب من هزيمتهم) أنها جميعاً تندرج في أصناف خمسة:

1. الاتجاه الإصلاحية

وهو يشدد على أن الهزيمة جاءت نتيجة للضعف، وعوامل أساسية في الفرد والمجتمع، والشروط التي يتصف بها النظام العربي في الحكم، والعلاقات العربية-العربية. وبالتالي

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

ينبغي القيام بتغييرات أساسية: إعادة تشكيل النظام الاجتماعي والسياسي، إصلاح النظام التعليمي، وخلق إنسان عربي جديد. كما ينبغي أن يعم التحديث حياة العربي ووعيه بشكل عام، وأن يتم تطوير التكنولوجيا، وأن تصبح الأنظمة متحررة.¹

2. الاتجاه الثوري

وهو يميز الضعف السابق ذاته ولكنه يعزوه إلى الأنظمة العربية ويرى أن الحل يكمن ثورة شاملة وانفصال جذري عن القيم التقليدية، وبالتالي لن تكون هنالك من حاجة لانتظار تحقق كافة التغييرات، وإنما يجب أن تثن عوضاً عن ذلك «حرب شعبية ثورية» على إسرائيل، وهذه الحرب سوف تتطور إلى ثورة شاملة.²

3. الاتجاه الإسلامي

ويمثله من يتحسسون للمعائب الأخلاقية المنتشرة في الدول العربية، ويعزونها إلى ضعف التمسك بالإسلام؛ وهم يشعرون بأن المجتمع العربي قد انحط لأنه ابتعد عن الإسلام؛ ويعتقدون أن علاج مشاكل العرب يكمن في الإسلام الذي باستطاعته دون غيره أن يمددهم بالقوة اللازمة لاستمرار النضال ضد إسرائيل ويضمن لهم الانتصار النهائي.³

4. الاتجاه المؤسساتي

وهو يسود في مصر بالأخص، ومع اعترافه بضعف العرب على مستوى الداخل، فإنه يقلص مسؤوليتهم في الهزيمة، ويعزوها إلى ظروف طارئة مثل بعض الأخطاء التي يمكن تصحيحها، وبالتالي يجعل هذا المنهج في التفكير انعدام كفاءة قيادة الجيش مسؤولة عن الهزيمة، ويرى العلاج في إعادة بناء الجيش. ويتمسك أتباع هذا الاتجاه بأن على الشعب

(1) راجع. قسطنطين زريق: معنى النكبة مجدداً.

(2) راجع. صادق جلال العظم: النقد الذاتي بعد الهزيمة.

(3) راجع. صلاح الدين المنجد: أعمدة النكبة.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

أن يثق بقيادته السياسية؛ فالحل لا يكمن. كما تطالب الاتجاهات السابقة، في تغيير الأنظمة، وإنما، على العكس، في تقويتها.

5. فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية

وموقفها يتمثل في أن وجود إسرائيل هو السبب في كافة التعثرات العربية؛ فلا فائدة ترتجى من أية محاولة لتحسين الظروف الداخلية في الدول العربية ما دامت إسرائيل موجودة؛ وبالتالي يجب أن تبذل الجهود كافة في محاربة إسرائيل. و فقط عندما تتم تصفيتها نهائياً يستطيع العرب أن يتفرغوا لإصلاح البيت الداخلي.

ويمكن الاقتصار على بضعة أمثلة للاستدلال على تلك الاتجاهات ومدى النقد الذاتي الذي يميز العديد من الكتابات العربية حول الهزيمة أمام إسرائيل، وأسبابها، والدروس التاريخية المستمدة منها. ومن أول وأهم هذه الأمثلة كراس ظهر بشكل مبكر في أغسطس 1948 فور انتهاء الحرب العربية-الإسرائيلية ذلك العام، وحملت عنوان «معنى النكبة» بقلم المفكر والأكاديمي السوري الدكتور قسطنطين زريق. ولهذا العمل أهمية عظيمة تنبع من أن الملاحظات الواردة فيه تم تكرارها مرارا وتكرارا في العديد من الكتب والمناشير والمقالات التي ظهرت في العديد من أرجاء العالم العربي.

يؤكد زريق، وهو من أكثر المفكرين العرب المعاصرين تأثيرا، على أن الحرب المديدة لاجتثاث الصهيونية لن تنتهي بانتصار العرب ما داموا على وضعهم الحالي، وأن الطريق إلى هذا الانتصار يتمثل بالتحول الكامل لأنماط تفكيرهم وأفعالهم وحياتهم. وهو يرى أن انتصار الصهاينة كان لأن «جذور الصهيونية ممتدة في الحياة الغربية الحديثة بينما لا يزال معظمنا بعيدا عن هذه الحياة ومعاديا لها، إنهم يعيشون في الحاضر ومن أجل المستقبل، بينما لا نزال نحلم بأحلام الماضي ونخدع أنفسنا بمجده الغابر». وفي سبيل تحقيق هدفهم، يعتقد زريق أن العرب ينبغي أن يتحدوا ويصبحوا تقدميين ويؤسسوا وجودا عربيا متينا، ثم يستمر بنقده للعرب لعدم تأثرهم بفكرة أرض الأجداد وتفرقهم في العمل

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

من أجل أهدافهم، بينما يتغلغل حلم بناء أرض الأجداد إلى نخاع عظام الصهاينة، ويتحدون في سبيل تحقيق ذلك، وتتجذر أقدامهم في الحياة الغربية الحديثة، وتجدهم مستعدين دائما للاندفاع السريع والتقدم؛ وما لم يكتسب العرب هذه الصفات، بما في ذلك استبدال عقلية تقدمية نشيطة بعقليتهم البدائية الراكدة الساكنة، فلن يكونوا قادرين على هزيمة الصهاينة؛ وعلى العرب أن يسعوا جاهدين لتوحيد كافة الدول العربية وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والتحول إلى التقدمية باعتبار أن التقدمية كانت سببا في هزيمة الصهاينة للعرب.

ويعدد زريق من عناصر التقدمية:

1. التكنولوجيا.
2. الفصل ما بين الدين والدولة.
3. انتقال العقل العربي إلى حالة منظمة من خلال التدريب بالعلوم التجريبية النافعة والابتعاد ما أمكن عن المثاليات الخيالية المخدرة التي لا ضرورة لها.
4. اكتساب أسمى القيم العقلية والروحية.

ويبرر زريق اقتراحه بالتحول الجذري إلى التقدمية بالاحتجاج أنه «تحت وقع ضربات الصهيونية انتهى وضعنا الحالي إلى إفلاس مادي وروحي فظيع. في هذا الصراع لم يكن لتقاليدنا أي فائدة»، وأن العدو، بفضل امتلاكه الحضارة الحديثة «تعدانا في قوة إيمانه، ووحدة الولاء، والقدرة على التمسك بالشعب والأرض والوطن، كما تعدانا في أسلحة الحرب والتقنيات المادية». ومن هنا يرى زريق أن العرب أيضا ينبغي أن لا يخشوا شيئا من هذه التقدمية الوطنية.¹

(1) راجع، قسطنطين زريق: معنى النكبة.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

إن الاحتجاج بأن هزيمة إسرائيل تتطلب من العرب اكتساب الصفات نفسها التي تفوق بها اليهود على العرب. نجدها مكررة بمزيد من التأكيد بعد 19 عاما في كتاب آخر لزريق صدر في أغسطس 1967 حول الموضوع ذاته بعد عدة أسابيع حرب حزيران في ذلك العام. وحمل عنوان «معنى النكبة مجددا». وفي الكتاب الجديد يعزو زريق مجددا هزيمة العرب إلى ضعفهم الثقافي والتعليمي، ويقارن بين العرب واليهود. ويؤيد اتخاذ الآخرين مثلا يتبعه الأولون، فيقول:

الحقيقة التي يجب أن ندركها ونعترف بها هي حقيقة حضارية: إن كلام المجتمع العربي والمجتمع الإسرائيلي الذي نواجهه ينتميان إلى حضارتين مختلفتين. أو نمطين مختلفين من أنماط الحضارة. وهذا سبب أساسي لضعفنا رغم أعدادنا الغفيرة. وقوة الإسرائيليين رغم عددهم القليل. وعندما نصل إلى مستواهم سنحل المشكلة من تلقاء نفسها...

ويشرح زريق أن حديثه عن «الحضارة» لا يعني القيم الحضارية والأخلاقية. وإنما الحضارة الحديثة التي تتفوق بإنجازاتها العلمية على المستويين النظري والعملي، والعقلانية التي تنمو سريعا أو حتى باندفاعات مفاجئة. ثم ينتقل زريق في ما بعد إلى دور العلم في الحياة العصرية فيقول:

يشكل العلم أيضا أرضية للفاعلية السياسية. إذ ينبغي علينا أن ندعم الأمم الأخرى أو نعارضها بناء على المحاكمة العلمية وحدها. لا على أساس المشاعر والعواطف: علينا أن نشكل تنظيمنا الداخلي وعلاقاتنا الخارجية على ضوء العلم... ولا يعبر العلم عن نفسه بنتائج مرئية فحسب... فبعيدا عن كافة المظاهر الخارجية توجد حاجة لعقلية مدربة ومنظمة. ومثل هذه العقلية لا تكتفي بالخيال، بل إنها تنتفض ضده. إنها تعتقد بالواقعية والتجربة، وتتقدم نحو المعرفة في طريق شاق يتطلب الصبر والجهد الجهد: وهي مسلحة بنفس طويل.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

والجاهزية للتضحية بالمنافع السريعة مقابل التخطيط والتنظيم والمنهجية التي تعتنقها. والعلم. أساسا. طريقة للتفكير وطريقة للحياة. فيكون السؤال الأساسي: كيف لنا أن ننقل المجتمع العربي بشكل كامل وعاجل من مجتمع عاطفي يعيش في الخيالات ويتغذى على الأساطير إلى مجتمع عملي وفعال وعقلاني وعلمي؟ كيف لنا أن نحقق فيه الثورة التي ستجلب لنا الأمن والقدرة والسمعة في العالم الحديث؟...

ويحاول زريق في صفحات لاحقة أن يجيب على السؤال الذي طرحه مسبقا. وذلك بأن الخطوة الأولى على طريق تحقيق مجتمع عربي علمي منتج والمقدمات الأساسية لذلك تكمن في الإيمان «بنداء العلم والإنتاجية» والسعي المتحمس للقيادة السياسية والمفكرين والقادة المحليين لنشر هذا النداء في جميع قطاعات المجتمع العربي و«غرسه في أدمغتهم وأرواحهم إلى أن يصبح جزءا من مشاعرهم وأفكارهم ومصدرا لإرادتهم». وعلى الدولة أن تجعل هذا الهدف هاجسها الأساسي. ويصف زريق التغييرات التي يجب القيام بها لهذا الغرض في الماكينة الحكومية نفسها فيرى وجوب رفع سوية الإنتاج والتنمية واستبدال الارتجالية والجهود المتفرقة قصيرة المدى بالتخطيط الدقيق الذي يتطلب امتلاك «العقلية المخططة». وأن على العالم العربي أن ينخرط في حرب ضد تخلفه. وأن يؤسس مجتمعا قوامه العلم ولهذا الغرض ينبغي على العرب أن يتعلموا مواجهة الحقيقة ويبدؤوا بالبحث العلمي. كما إن على عائق الشعب واجبات مهمة عليه أن ينجزها: عليه أن يقوم بدور فعال في شؤون الأمة وأن يفهم بأن الصراعات والحروب ليست مسؤولية الحكومة أو مجموعات أو أحزاب معينة فحسب. وإنما هو معني بها أيضا؛ ولهذا ينبغي أن يتمتع الشعب بالحرية السياسية والايديولوجية. أخيرا. يتطلب الصراع من الشعب أن ينمي صفات ثلاث: العقلانية. حب العمل والمقدرة عليه. الانضباط والنظام. والرضى بالقليل.¹

(1) قسطنطين زريق: معنى النكبة مجددا.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

بعد أربعة أشهر من ظهور الكتاب الثاني لزريق، نشر كتاب أكبر منه وحول الموضوع ذاته للدكتور صلاح الدين المنجد بعنوان (أعمدة النكبة: بحث علمي في أسباب هزيمة 5 حزيران)؛ والمنجد كاتب سوري درس القانون في جامعة السوربون وترأس مركز النشرات الدورية في الجامعة العربية. يفتح المنجد الفصل الرابع من الكتاب والمعنون (تخلفنا العلمي) باقتباس من مقال للكاتب المصري محمد حسنين هيكل منشور في صحيفة الأهرام المصرية في 20 أكتوبر 1967. وينتهي الاقتباس بقوله: «إننا نواجه عدوا ماهرا عصبيا. وليس هنالك من حل آخر أمام الجانب العربي في المواجهة العامة سوى أن يكون مثله في المهارة والعصنة». ثم يبدأ المنجد بتحليل جرح لمواطن الضعف عند العرب بصراحة شجاعة أكثر إبلا ما لأنه يقارن بين التفوق الإسرائيلي والتخلف العربي. وفي الكثير من النواحي، يبدو تقريره تفصيلا لأطروحة زريق في ما عدا أن المنجد يقف ضد تقدمية زريق ويبدو معاديا للاشتراكية بشدة؛ فيقول:

إن إسرائيل، بسبب جهودها في مضمار العلم، تتقدم بخطوات كبيرة باتجاه الاكتفاء الذاتي وبدأت بتصدير منتجاتها، حتى العسكرية منها، إلى أفريقيا وآسيا؛ بينما نحن، بسبب الأنظمة الاشتراكية، نخطو إلى الخلف، ولا نزال معتمدين على الغرب، ولم نتوقف عن استجداء حتى الأسلحة الخفيفة منه.

بعد ذلك بنحو عام، ازدادت الكتابات التي تتناول كارثة 1967 تطورت إلى حد شعر فيه محام وقائد سياسي بالحاجة إلى تصنيفها في عدة أنماط وتحليلها، قبل أن يقدم تفسيراته الخاصة. هذا الشخص هو الدكتور عبدالرحمان البزاز. أحد رؤساء الحكومة في العراق. وقد قسم تلك الكتابات إلى عشرة توجهات فكرية في ما يخص أسباب الهزيمة:

1. انهزم العرب لأنهم لم يظهروا جبهتهم الداخلية، ولم يستقروا على مبدأ الاشتراكية العلمية.
2. لأنهم لم يعتمدوا بشكل كامل على الدول الاشتراكية.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

3. لأنهم لا يزالون رهينة عقلية العصور الوسطى.
 4. لأن أجهزة إعلامهم لم تتمكن من رفع الروح المعنوية لجيوشهم.
 5. لأنهم لم يكونوا متشبعين فعلا بالوعي القومي في مواجهة العدو.
 6. لأن أجهزة إعلامهم لم تكن قادرة على حشد الرأي العام العالمي إلى جانبهم.
 7. لأن دولهم بقيت منفصلة غير متحدة.
 8. لأنهم لم يستجيبوا لنداء الأحزاب الطليعية.
 9. لأن قوتهم استنفدتها الصراعات العربية الداخلية.
 10. لأن الأنظمة العربية والسياسيين لم يكونوا على المستوى المطلوب من المسؤولية.
- وبالرغم من أن هذه التوجهات لا يعزو أي منها الهزيمة إلى الركود والتخلف عند العرب، فإن هذا التفسير يدخل في العديد منها، سواء أكان ذلك بالتصريح (1، 3) أو التضمين (4، 5، 7، 8، 9)، إن التوجهات العشرة جميعها تبحث عن أسباب الهزيمة في أخطاء العرب بشكل عام أو تنحو باللائمة فيها على الأنظمة أو السياسيين، ولم يتطرق أي منها بأي شكل من الأشكال إلى تدريب وعقلية الجنود العرب.
- وبعد مناقشة كل من هذه التوجهات في مقطع مختصر، والتنبيه إلى أن كل منها له توجه يعاكسه، ينتقل البزاز إلى إبداء وجهة نظره حول مواطن الضعف الكبرى لدى العرب، والتي سلط الضوء عليها بفعل الهزيمة، فيقول:

1. أي بلد عربي لا يمكنه أبدا أن يكون لوحده قويا بما فيه الكفاية لهزيمة

إسرائيل؛ وبالتالي ينبغي على العرب أن يتحدوا. [راجع التوجه السابع]

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

2. على الرغم من وجود اتفاقيات رسمية بين الدول العربية، فإنها دائما ما تتخذ إجراءات متعارضة، أو حتى متضاربة. /راجع التوجه التاسع/
 3. على العرب أن يؤسسوا جهازا إعلاميا دعائيا موحدًا. /راجع التوجيهين الرابع والسادس/
 4. يوجد نقص في التخطيط والدراسات التأهيلية في أفعالنا؛ فمعظم أفعالنا تتسم بالعاطفية ورد الفعل المباشر ونقص الحسابات الكاملة للعواقب النهائية.
 5. تصرفاتنا كدول، على العموم وفي معظم الحالات، لا تختلف عن تصرفاتنا كأفراد يتكون منهم مجتمعنا؛ فنحن نبالغ في الحب والكره كليهما. وتصل كراهيتنا إلى حد ندمر فيه كافة الجسور المؤدية إلى الصداقة أو السلام.
 6. إننا نميل إلى تحميل الآخرين مسؤولية أخطائنا. وهذه وصمة نفسية موجودة فينا حيث تنمو منذ الطفولة. /راجع التوجه العاشر/
 7. علينا أن نلاحظ أن إسرائيل ذاتها تمثل تهديدا لنا، فهي ليست قاعدة للقوى الامبريالية فحسب.
 8. علينا أن نحشد قواتنا بطريقة مشابهة لما يحدث في إسرائيل. علينا أن نكون واثقين من أن قادة جيشنا يتساوون في قيمتهم مع قادة أعدائنا الذين يتصفون بالذكاء والتعليم وإدراك معنى الحروب الحديثة.
- ... إن المشكلة الأساسية هي في كيفية رفع مستوى الفرد العربي... إلى حد يساوي فيه، على الأقل، مستوى العدو...¹

(1) عبدالرحمان البزاز: كيف يريح العرب الحرب.

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

إن ما أوردناه من اقتباسات يكفي لتبيان أن هنالك رغبة شديدة حقا بين المفكرين العرب لإحداث تغييرات عظيمة الأثر في النسيج التقليدي لمجتمعهم. ولإعادة تشكيل الفرد العربي في قالب جديد. أضف إلى ذلك أنهم يبدوون اعتبارهم لعدوهم، إسرائيل. بمكانة المثال الذي ينبغي على العرب تقليده. كما يرى ذلك العديد من بلغاء المتكلمين. ويكون ذلك في الأساس بغرض التمكن من هزيمة إسرائيل. كما يكون أيضا للتمكن من تحقيق التقدم وامتلاك سمعة مشرفة في العالم المعاصر. وقد أصبح الميل إلى اعتبار إسرائيل كمثال ظاهرة شديدة الانتشار في مصر إلى حد أصبحت فيه محط انتقاد معلن. وفي 14 يوليو 1972 نشر في صحيفة الأهرام شبه الرسمية مقال لرئيس التحرير محمد حسنين هيكل. وهو مستشار نافذ لدى الرئيس المصري. أعلن فيه رأيه المعارض لعدد كبير من العرب الذين زاروا إسرائيل أو كان في نيتهم أن يزوروها. وقال:

إسرائيل تريد تجريد العرب من سلاحهم الرئيسي. وهو عدم قبولهم بها... هنالك الآن مئة وخمسون ألف مواطن عربي يعبرون جسر نهر الأردن كل شهر مغادرين إلى إسرائيل أو عائدين إليها. مئة وخمسون ألف مواطن عربي كل شهر في إسرائيل! هل بإمكاننا استيعاب المعنى الكامل لهذا، إذا تفكرنا في هذا الرقم ونحن يجب أن نتفكر فيه لوقت طويل. المعنى السياسي للجسور المفتوحة التي تساعد حالة، أو جريمة، اللاسلام واللاحرب القائمة حاليا؟ إن معنى هذه السياسة هو بالضبط أنها طريقة لإخماد رفض العرب لإسرائيل. وهي أكثر قوة من الطائرات والدبابات والبنادق التي تستعملها إسرائيل... وهي أخطر سلاح تمتلكه. ومع ذلك أصبحت وكأنها شيء عادي... كإيقاع الحياة اليومية. أليست هذه كارثة؟

في كلماته هذه يقول هيكل بشكل غير مباشر بأنه يعتقد أن ما يراه الزائر العربي في إسرائيل لا يتمكن من مقاومة إغرائه. لكن هذه الرأي وجد لسانا ينطق به عند الكاتب الفلسطيني محمود درويش في صحيفة الأهرام بعد أيام قلائل من مقالة هيكل. حيث نَفَس درويش عن غضبه ضد كثير من العرب المتحمسين لقراءة ترجمات عربية لكتب

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

مؤلفين إسرائيليين جاعلين منها في صدارة المبيعات. بالإضافة إلى استماعهم للإذاعات الإسرائيلية. فبالنتيجة. تحول موقف العرب من ازدراء إسرائيل إلى تقدير مبالغ فيه يقترب من الإعجاب؛ وأصبح الرأي العام العربي يعتبر المجتمع الإسرائيلي نمطا حقيقيا وصحيا للحياة حيث تتوفر فيه حرية أوسع بكثير. وحذر درويش بأن ضرورة معرفة العربي لعدوه يجب أن لا تعني استعمال دعايته على العرب.

يبدو واضحا أن الإدراك بأن العالم العربي قد أصبح منذ العصور الوسطى متخلفا عن الغرب في العديد من مجالات الحضارة. وهو إدراك صعق العرب لأول مرة عندما انهزموا بسهولة أمام نابليون. هذا الإدراك سلطت عليه الأضواء بشدة وعلى نحو مؤلم جدا عند هزيمتهم أمام إسرائيل. وخلال مئة خمسين عامه فصلت بين هاتين الهزيمتين لم تندلع حرب كبرى بين العرب والدول الغربية. وإنما مجرد اشتباكات صغيرة كاستيلاء المهدي على الخرطوم عام 1885 وهزيمته في ما بعد عام 1898. وهذه كانت لها أهمية محلية فقط ولم تحدث انطبعا في العالم العربي؛ وكذلك كان استقلال الدول الثلاث التي حكمتها فرنسا في شمال أفريقيا، المغرب وتونس والجزائر. فلم يكن ذلك بمواجهة واسعة النطاق بين قوى عظمى مسلحة لدولة غربية وأخرى شرقية.